

دولة إسلامية شيوعية

في القرن الرابع الهجري

تنوُّأ المبادئ الاشتراكية مكاتها بين النظم المعاصرة، وتشق طريقها بنجاح إلى كثير من المجتمعات المتمدنة، وتحظى بكثير من القوة والنفوذ العملي في عدة من أعرق الأمم الديمقراطية الأوربية؛ وتسيطر الفكرة الشيوعية وهي خلاصة الفكرة الاشتراكية وغايتها المثلى على نظام دولة أوربية عظمى معاصرة هي روسيا السوفيتية .

وإذا كانت الفكرة الاشتراكية تبدو اليوم من ناحية التطبيق العملي أحدث فكرة لتنظيم الدولة والمجتمع، وإذا كانت روسيا السوفيتية من حيث الوضع التاريخي هي أول دولة متمدنة تقوم على الفكرة الاشتراكية وأول دولة متمدنة طبقت الفكرة الشيوعية بصورة عملية، فإن ذلك لا ينفى أن الفكرة الشيوعية، كأساس لتنظيم الدولة والمجتمع هي فكرة قديمة مثلت في التفكير الإنساني منذ أقدم العصور .

ففي جمهورية أفلاطون نجد شرحاً للمجتمع الشيوعي الذي تصوره الفيلسوف، وهو يشير إلى نقص النظم الاجتماعية القائمة في عصره، ويقول بوجود تغييرها من أساسها، وأن يقام مجتمع تسوده المساواة العامة في ظروف الحياة تمحي فيه الفوارق الاجتماعية بين الأغنياء والفقراء . ولم يكن المجتمع الذي تصوره السير توماس مور في كتابه المثالي الشهير Utopia في القرن السادس عشر سوى مجتمع شيوعي بكامل معاني الكلمة يقوم على شيوع الثروات ووسائل الإنتاج .

ولم تقف الفكرة الشيوعية في المجتمعات القديمة عند حد الدعوة المجردة، ولكنها طبقت بالفعل بصورة عملية في أحيان كثيرة . ففي عصور المسيحية

الأولى كانت ثمة جماعات نصرانية تطبق النظام الشيوعي في حياتها . وفي العصور الوسطى كانت ثمة جماعات وطوائف كثيرة ولا سيما الهيئات الدينية وجماعات الرهبان تعيش في ظل الشيوع .

بل لقد غزت الفكرة الشيوعية المجتمع الإسلامي ذاته وهو في ذروة قوته ونضجه ورسوخه : غزته في أوائل القرن الرابع الهجري على يد طائفة من الدعاة الغلاة الذين اعتنقوا مبادئ دينية واجتماعية جديدة متطرفة ، ونجحوا في إقامة دولة من طراز جديد تقوم على نوع من الشيوع الاقتصادي والاجتماعي .

أولئك هم طائفة القرامطة الذين ظهرت دعوتهم الثورية لأول مرة في أحواز الكوفة في أواخر القرن الثالث الهجري . وكان في مقدمة دعائها رجلا ن يحيط بأصلهما الغموض ، هما الفرج بن عثمان القاشاني المعروف بذكرويه ، وزميله وتلميذه حمدان الملقب بقرمط^(١) وهو الذي غدا من بعده إمام المذهب وزعيمه . ولم تكن دعوة قرمط في البداية سوى طرف من الدعوة الإلحادية العنيفة التي شورها عبد الله بن ميمون في جنوبى فارس باسم الحركة الشيعية في أوائل النصف الثاني من القرن الثالث الهجري . وكانت مثلها تقوم على الدعوة إلى إمام من آل البيت هو المهدي الذي يملأ الأرض بعدله . وكانت الفكرة الدينية في الواقع قوام كل دعوة جديدة تبدو في المجتمع الإسلامي للقيام بأية محاولة لانتزاع السلطة السياسية . وكان الدين دائماً عضد السياسة ودعامتها الأولى . ولم يشذ داعية القرامطة عن هذه القاعدة ، فألقى إلى صحبه وأنصاره تعاليمه الدينية في صورة أوامر وتعاليم جديدة سواء في التحريم والإباحة ، فعدل أحكام الصلاة والصوم ، وأباح شرب الخمر ، وفرض الجزية على أنصاره إلى غير ذلك من التعاليم والبدع الجديدة التي يتميز بها مذهب القرامطة .

وقد انتهت إلينا عن فلسفة القرامطة ومراتب دعوتهم أقوال كثيرة متضاربة . بيد أنه يكاد يكون من المجمع عليه أنها فلسفة مادية تقوم على تعاليم الباطنية ومذاهب الدهرية ، وأساسها ترك العبادات والمحظورات ، واستباحة المحرمات . وأما وسائل الدعوة فقد رتبت على عدة مراتب خمس أو سبع أو تسع وفقاً لمتخلف

(١) يرى بعض الباحثين أن كلمة « قرمط » ربما اشتقت من افنة القبائل الأرمينية بالجزيرة ومعناها « المدلس » (دائرة المعارف الإسلامية في مقال القرامطة) .

الروايات ، تبدأ بالتفرس والتأنيس والتشكيك وتنتهي بالخلع والنسخ ، أو بعبارة أخرى تنتهي بنسخ العقائد المقررة وهدم الأديان .
 على أنه يبدو مع ذلك أن دعوة القرامطة كانت تشتمل على برنامج سياسي واجتماعي وثقافي منظم ، يقوم على العقل والتسامح والمساواة الاجتماعية والاقتصادية . وهذه الناحية من تعاليم القرامطة هي التي تعيننا في هذا البحث قبل كل شيء . ذلك أن المساواة الاجتماعية والاقتصادية التي غلبت على مجتمع القرامطة كانت في ذاتها بدعة جديدة في تعاليم الفرق الإسلامية . ويرى الأستاذ ماسنيون أن مجتمع القرامطة الثوري الذي قام في جنوبي الجزيرة (العراق) كان يقوم على أساس شيوعي^(١) . والواقع أن قرمط داعية المذهب وإمامه الأول ابتدع أصولاً وقواعد جديدة لتنظيم مجتمع إسلامي جديد من أنصاره يقوم على الإباحة والشيوع ، ففرض على أنصاره في البداية ضريبة عامة ، ثم ضوعفت هذه الضريبة حتى كادت تستغرق الدخل الفردي ، ثم انتهى بأن أقنع أنصاره بمزايا الشيوع وإلغاء الملكية الفردية ، واشترط على الصحب والأنصار وضع الأملاك الخاصة في ملكية عامة أو ما يسميه دعاة المذهب «بالألفة» . ونظم الدعاة في كل مكان وجدت فيه طائفة من الأنصار مجتمعاً شيوعياً حقيقياً ، ولم تلبث هذه الدعوة الشيوعية أن انتشرت بالأخص بين العمال والفلاحين في جنوبي الجزيرة كما انتشرت في بعض أنحاء خراسان وسوريا واليمن .

ولم يلبث مجتمع القرامطة أن تحول في ظل هذه النزعة الشيوعية ، وفي ظل هذه الإباحة المطلقة ، إلى عصابة خطيرة من الخوارج والناقين ، تستحل الأموال والأعراض ، وتنشر الدمار والرعب فيما حوّلها من الأنحاء . ولم تلبث أن نشبت بينهم وبين جند الخلافة العباسية معارك دامية . وذاعت دعوتهم في قلب الجزيرة العربية ، وطاردهم جنود الخلافة إلى الداخل وهم يزيدون قوة وجوعاً . وظهرت قوتهم وجراتهم لأول مرة بصورة خطيرة حينما زحفوا على مدينة دمشق سنة ٥٢٩هـ (١١٤٢م) ولم يُرَكَّذوا عنها إلا بعد معركة طاحنة اشتركت فيها جند مصر والشام . واستفحل أمر القرامطة في أنحاء البحرين ، والتفوا هنالك حول زعيم

(١) في دائرة المعارف الإسلامية في مقالة عن القرامطة .

قوى صارم العزم، هو الحسن بن بهرام المعروف بأبي سعيد، وزحفوا على البصرة وهزموا جند الخليفة في ظاهرها. ثم أنشأ سليمان أبو الطاهر ولد أبي سعيد مدينة الأحساء وجعلها عاصمة لإمارته. ثم غزا البصرة مرة أخرى، وتجرد بعد ذلك للبطش بقوافل الحجاج والتجار، وبسط سلطانه على أواسط الجزيرة العربية، واستمر أمره في ازدياد. وفي سنة ٥٣١٧هـ (١١٢٩م) سار أبو الطاهر إلى مكة وفتك بالحجاج، واقتحم البيت الحرام، واقتلع الحجر الأسود وحمله إلى الأحساء، فارتاع العالم الإسلامي لذلك الاجترار. ولم يرد القرامطة الحجر الأسود إلى مكانه إلا بعد جهود كثيرة بذلتها الخلافة العباسية والخليفة الفاطمي في ذلك السبيل. ولبث أبو طاهر سيد البحرين زهاء ثلاثين عاماً يتردد بالإغارة والنهب على مدن العراق والشام، حتى اضطرت حكومة بغداد ذاتها أن تقدم له إتاوة سنوية لتنجو من عدوانه.

ويمكننا أن نعتبر سليمان بن الحسن مؤسس دولة القرامطة الحقيقي ومنظم دستورها السياسي والاجتماعي، وعلى يده اتخذت فلسفة القرامطة وتعاليمهم شكلها النهائي، وطبقت بمنتهى العنف والشدة. وقد ورد في رسالة «القاموس الأعظم» التي وجهها بعض أئمة المذهب إلى سليمان وصف يحمل لأصول الدعوة ووسائل إذاعتها قال فيه: «ادع الناس بأن تتقرب إليهم بما يميلون إليه، وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم، فمن آنت منه رشداً فاكشف له الغطاء، وإذا ظفرت بالفلسفي فاحتفظ به، فعلى الفلاسفة معولنا. وإنا وإياهم مجمعون على أن نواميس الأنبياء، وعلى القول بقدم العالم لوماً ما يخالفنا فيه بعضهم من أن للعالم مدبراً لا يعرفه». وجاء فيها أيضاً إبطال القول بالميعاد والعقاب، وأن الجنة هي نعيم الدنيا، وأن العذاب إنما هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصيام والحج والجهاد... الخ.

ثم يقول الداعي لسليمان بن الحسن: «وأنت وإخوانك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس، وفي هذه الدنيا ورثتم نعيمها ولذاتها المحرمة على الجاهلين المتمسكين بشرائع أصحاب النواميس. فهنيئاً لكم بما نلتم من الراحة عن أمرهم» (١).

(١) الفرق بين الفرق لعبد الظاهر البغدادي ص ٢٧٨ و ٢٧٩ و ٢٨٢.

ووصل القرامطة إلى ذروة قوتهم في أواسط القرن الرابع الهجري حين زحفوا على الشام وعاثوا فيها، ثم زحفوا على مصر سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣م) في عهد المعز بقيادة زعيمهم الحسن الأعصم، ولم يُردّوا عنها إلا بعد معركة طاحنة بالقرب من بلبس. وكان القرامطة ينضون في بادئ الأمر تحت لواء الخلافة الفاطمية باعتبارهم من فرق الشيعة الإمامية. ولكن المعز أنكر عليهم بعد ذلك جراتهم وعبثهم واعتداءهم على أراضيه، ونشبت الخصومة بينه وبينهم. ولم ينقطع خطر القرامطة على مصر إلا في عهد ولده العزيز حيث ردّوا عنها وعن الشام بصورة نهائية وما نود أن نلفت النظر إليه بإيراد هذه الملحة الموجزة عن تاريخ القرامطة هو أن القرامطة استطاعوا أن ينشئوا بالرغم من مبادئهم الغريبة المتطرفة في قلب الجزيرة العربية مجتمعاً منظماً متمسكاً، ودولة بلغت من التنظيم والقوة، أن استطاعت أن تهدد الخلافة العباسية في الشرق والخلافة الفاطمية في الغرب، وأن تنضخ في أنحاء الجزيرة العربية شمالاً وغرباً، وأن تصل في غزواتها إلى قلب الأراضى المصرية. وقد كانت هذه الدولة العربية التي تتسم بسمة الإسلام دولة خارجة على سائر الأمة الإسلامية، تقوم على أصول وتعاليم تنكرها تعاليم الإسلام الصحيحة السياسية والاجتماعية فضلاً عن الدينية. كانت دولة عسكرية شيوعية، تقوم على شيوع الثروات الطبيعية والمكتسبة يوزع الإمام منها ومن ثمراتها على رعاياه وفقاً لمشيئته. ولا تحترم مبدأ الملكية الشخصية الذي يعتبر قاعدة أساسية في تكوين المجتمع الإسلامى الاقتصادى، والذي تحيطه الشريعة الإسلامية بضمانات قوية. بل لقد ذهب القرامطة في تطبيق مبدأ الشيوع إلى حد الإباحة المروعة، فأباحوا شيوع النساء، وكانت المرأة عنصراً بارزاً في مجتمع القرامطة يسمح لها بالانتظام في سلك الدعوة والتدرج في مراتبها. وكان الدعاة من المراتب العليا يطبقون هذا النوع من الشيوع المثير بطريقة منظمة، وكانوا يعتبرونه نوعاً من الكمال الذى يقوم على أقصى درجات الصداقة والإخاء. ويروى لنا ابن الأثير عن زعيم القرامطة أبى سعيد حادثاً من هذا النوع يؤيد انحدار القرامطة إلى هذه الفوضى الأخلاقية المروعة، التي كانت عنوان مذهبهم^(١). وقد كان من الطبيعى أن تقترن هذه الإباحة المفرقة

(١) ابن الأثير (مصر) ج ٧ ص ١٦٣ وراجع أيضاً الفرق بين الفرق ص ٢٨١.

بالغاء أحكام الإسلام الأساسية من الصلاة والصوم وسائر الفرائض الأخرى .
 ولقد كانت هذه الناحية الدقيقة من الشيوع التي اعتنقها القرامطة في القرن
 الرابع الهجري من أشد ما تهاجم به الشيوعية الحديثة ؛ إذ يقول خصوم
 الشيوعية إن شيوع الثروات ووسائل الإنتاج يؤدي إلى شيوع النساء . ويرد
 ماركس إمام الشيوعية في البيان الشيوعي على هذه التهمة ويفندها ، ويحاول أن
 يدلل على أن المجتمع البورجوازي يتخبط في معترك الفوضى الأخلاقية ، ويقوم
 في الواقع على نوع مستتر من شيوع المرأة ، وأن الشيوعية ترمي بتحرير الطبقات
 الدنيا من الفقر والعوز ، إلى تحرير النساء وإلغاء هذا البغاء المستتر الذي يحميه
 النظام البورجوازي (الراسمالي) .

وقد تأثرت فلسفة القرامطة فيما يبدو بمبادئ الخوارج الكلامية والسياسية .
 وقد كان بين الخوارج فرق ترى إباحة شرب الخمر والسرقة وغيرها إذا
 ارتكبت بغير إصرار^(١) ومن جهة أخرى فقد كان بين الخوارج من يرى أنه
 لا ضرورة لتنظيم المجتمع أو أن يقوم بين الناس إمام أو حكومة . وإنما
 يجب على الناس أن يتعاطوا الحق فيما بينهم . وهذه بلاريب هي اللاحكومية
 الحديثة بعينها .

وعلى أي حال فإن هذه الإباحة الدينية والسياسية التي غلبت على مذهب
 القرامطة منذ البداية لم تكن إلا طوراً من أطوار الثورة على الإسلام وعلى
 مبادئه ونظمه . وهي ثورة بدأت مبكرة جداً منذ قامت الحركة الشيعية
 وتسربت إليها تعاليم الملاحدة والمتأمرين السياسيين ، ولا سيما الدعاة الفرس أئمة
 هذه الثورة الإلحادية وأكبر دعائها . وقد كانت هذه النزعة الإباحية المغرقة
 تقترن عند القرامطة بالعنف الذريع ، فكان ذلك مما يضاعف خطرهما على المجتمع
 الإسلامي . وقد استطال هذا الخطر السياسي والاجتماعي زهاء قرن ، ولم ينحل
 مجتمع القرامطة إلا في أواخر القرن الرابع الهجري بعد جهود ومعارك عنيفة ،
 اشتركت فيها الدولة العباسية ومصر الفاطمية على ما بينهما من أسباب
 الخصومة والتباعد .

محمد عبد الله عنانه

(١) هم الأزارقة (المهرستاني ج ١ ص ١٦٦)